

العبقرية في قيادة المجتمع

”رومان رولان“

كل شيء زائل إلا الحقيقة ، ولن تموت الإنسانية الخالدة أبدا ، وسيظل الحق عزيزا بنفسه ، يرتفع فوق كل قوة ويعلو على كل كبرياء ، هكذا كان إيمان ”رومان رولان“ وهكذا كانت عقيدته ، ولقد وقف ذلك المفكر الإنساني العظيم في منهب العواصف طول حياته يجاهد لدعم هذه الحقيقة ، ويدعو في إخلاص وحرارة إلى تعميق الإيمان بها بين الأمم والشعوب ، والأفراد والجماعات ، فما عرف أحد منه التفاف في رأيه ، أو الرياء في دعوته ، ولا أمسك عليه الناس في يوم ما بخوة بين لسانه وجنانه ، بل ظل دائما على الإباء والوفاء ، والصدق والإخلاص ، يغمر الجميع بعطفه وحنانه ، ويشمل الضعفاء بحبه وإنسانيته ، ويفنى في كل ما يقول وما يكتب بالنعم الإنساني النبيل .

وليس من قصدى في هذا الحديث أن أؤرخ حياة رومان رولان ، فقد يكون أحق بهذا أبناء جلدته ، ومن هم ألصق به في المنشأ والمنبت ، والذين يحفلون بتعداد الأيام والأعوام وسرد الوقائع والحوادث ، وإنما القصد الذي أرجو أن أوفق فيه ، هو أن أصور لك تلك العبقرية المثالية التي تتجلى في شخصية رومان رولان ، والتي رفعت لواءها ذلك المفكر الإنساني الحرف في عصره والحجيم الذي لا يطاق ، والأتون المناجج بالمطامع الخبيثة والأناثية المجرمة والأحقاد الدفينة ، فاستطاع بهذا الصنيع الكريم أن يخلد خلود الإنسانية ، وأن يسمو سمو العبقرية .

لقد كان رولان ، كاتباً ، أدبياً ، فناناً ، مفكراً ، عالماً ، واسع الدراية بفتون العصر ومعارفه ، يتأثر بمواهب خارقة ، وألمعية صادقة ، ولكنه كان قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، قديساً في معبد الإنسانية ، يجمع كل ما يملك من المواهب والصفات ، وقدمه قربانا في ذلك المعبد ، وزلغى لذلك الدين ، ولقد كان ”رولان“ يجرى في ذلك على طبيعة موروثية ، ويستجيب للزعة خير انحدرت إليه من والديه ، ولقد ظهرت هذه النزعة في نفسه قوية جارفة وحولما يزل طالبا في معاهد العلم ، إذ كان في ذلك العهد يتصوف تتوفا فكريا ، ويقبل على دراسة الأدب والفن في شغف وإتقان ، ولكنه لم يرد أن يجعل نفسه كتابا من الكتب لكثرة إقباله على القراءة كما يقول ”جوتييه“ ، ولم يرد أن يسلم نفسه إلى ذلك الأدب العبوس والفن المقطع الأوصال كما يقول هو ، بل كان بعد نفسه لتبلغ رسالة ، ويجاهد في التماس طريق للهداية ، فكان يسأل نفسه ماذا يصنع ! ... أجل ماذا يصنع ؟ ! وهو يرى النفوس قد نغلت ، والقلوب قد فسدت ، ومذاهب الفكر قد تلوثت ، وأوروبا التي تأخذ بزمام العالم ، تسيرها المطامع والأغراض ، وتسلط عليها روح جنونية ظمأى إلى الدماء ، وتجار السياسة

يتنافسون على صفحات التاريخ الكاذب ، فكل منهم يريد أن يكون له فيه أنصح مكان ، وسماحة الأدب والفكر يضمون أنفسهم رهن إشارتهم ، ويتطوعون للسير في ركاب الشر وموبك الظلم والاستعباد ، ومعالم الحضارة تنهار تحت هذه الأعباء الثقيلة البغيضة ، وفيهم الشكر والأخلاق تذهب مذهب الباطل ويطويها الأهمال والنسيان ، كأنها قبور الموتى . .

كان "رولان" يرى كل هذا تحت عينه ، فتملكه الحيرة ويستولى عليه الفلق ، فيسأل نفسه وهو على باب الطريق ماذا يصنع ، ويلج على نفسه كثيرا في السؤال ، وإنه ليصف هذه الفترة من حياته بقلمه فيقول : " لا أنكر أنني كنت خلال سنوات مضت (١٨٨٥ - ٨٧) مضت في اضطراب فكري وقوضي عقاية ، وقد اضطررت ذلك الى البحث عن طريق الخلاص في حرارة وإخلاص وألم وتضرع ، وكنت أعيش في باريس ، ولكنني كنت أعيش في عزلة منقطعة ، تملكني روح نائرة تنشئ بالفن والموسيقى ، تجول الحقيقة ولكنها تهدي إليها رويدا رويدا وكنت أنطاع عن يميني وعن يساري لعاني أجده من يأخذ بيدي ، فأخذت جملة من نصائح "رينان" في فرنسا ، واستنجدت "بتواستوى" "وابسن" في الخارج ، وكلا الاثنين أجابني . . . "

"ولقد أحببت "تولستوى" وامتلاأت نفسي بحبه في كل لحظة ، وكنت محاط في حياتي الأولى بمجود الفكرى ، حتى كنت أجده نفسي في شخوص رواياته ، وأعترف اعترافا صادقا لاقتارى ، أن ذلك الرجل الكبير كان رائدى في الحياة وعونى على فوضى العصر الأدبية والفكرية بذكائه النافذ وعواطفه السامية ودعوته الى الحقيقة المطلقة وإلى الخير العام دعوة صادقة . . على أنى في الجهة الثانية كنت أجده نفسي في الفن منذ الحداثة ، كنت مشغوبا به وبخاصة بالموسيقى التي كانت غذائى ونشوة أحلامى ، وكنت لا أجده شيئا يؤثر في نفسي مثل النظر في تحفة فنية صاغها فنان موهوب حاذق ، أو سماع لحن من إيقاع "بتهوفن" العبقري ، أو تأمل في لوحة من لوحات "رامبرانت" العظيم ، هنا كنت أنسى ذاتى ، وتذوب أنا بتي ، إذ أشاهد الطيبة تندفق من تلك التملوب الكبيرة ، وأحس باشباع ذكائهم يامع في ناظرى ، ومن هنا اكتسبت عاطفتي الأخوية نحو الناس ، اكتسبتها من التعاطف المشترك ، وبعد مشاهدتى تمثيل رواية "أوديب الملك" وسماع الإيقاع الموسيقي برفقة جوقة من المغنين . .

هذا هو الغذاء الذى تشبعت به شخصية رولان ، وبه نضجت واستوت ، غذاء الفن الصادق ، والحقيقة الانسانية المطلقة ، وما كان فنائه في الفن الا فناء في تلك الحقيقة ، وما كان حبه لتولستوى إلا حبا للانسانية ، فهل استطاع "رولان" أن يجده في هذا خلاصا من قلقه وآسسه ، وأن يتلمس طريق الحق الذى كان ينشده في رسالة الأدب والفن ومهمة الفكر في الحياة ؟ !

لقد وجد الطريق التي توأم طبيعته ، وتلائم فطرته ، واحتدى الى ما يجب أن يتحملة وتحمله العبقرية الفنية في تبليغ رسالتها الى الناس ، وقد شرح ذلك في مؤلفاته ورواياته وقصصه التي أذاعها في الصحف ، ولقد أجل ذلك الشرح الطويل إجحالا وافية في إحدى رسائله إذ يقول : "إن نتائج العلم الصحيح والفن الصادق هو التضحية . . وأنا أول من يدعو الى إدخال الفن في البيئة الشعبية وتجريده من كل تلك الإمتيازات والاعتبارات الرسمية ، يجب أن لا يكون الفن مهنة بل الهام ، لأن الإلهام يعمل دائما على التضحية . . وليس العالم اليوم بمقتدر الى ألوف التحف الفنية التي يعرضها أصحابها في معرض باريس من ستة الى إلى أخرى ، وليست له حاجة بتلك القطع التمثيلية والروايات التي يعطردها كل يوم أولئك الكتيون ، يكفي أن يكون في كل جيل من الناس ثلاثة أو أربعة من العباقرة يسودهم عقل راجح وطيبة متناهية ، ويقودهم شعور حي بجمال الأشياء ، فبذلك يخلقون شعبا يحسن التطلع والاحساس والفهم ، ويدرك ما هو جميل وطيب في هذا العالم ، ويهذب ما يحيط به من حواشي الحياة "

"وأنا لا أستاذ ولا أغضب أبدا إذا ما ألزم الفنانون بحمل نصيبهم من العمل اليدوي الضروري لخدمة المجتمع ودعم الكيان الاجتماعي ، ولكن بشرط أن يوزع ذلك توزيعا عادلا بين المجتمع ، وحينذاك تصبح الأعمال خفيفة العبء ، فلا ينوء بثقلها نوابغ الفنانين ، ويجدون عندهم القدرة والوقت لإنجاز آثارهم وتحفهم الفنية "

"إن الصفات العارسة المصطنعة والإحساسات المقطعة الأوصال التي يصطبغ بها الفن في هذه الأيام ، ترجع الى أن أصول ذلك الفن غير عريقة في حياة الأرض ، ولأنه نتاج لأشباح رجال ، وإفراز ديدان كل قدرتها أنها استطاعت امتصاص كلمات وأنغام وألوان ، وعلى أي حال ، فإن جمال الأثر الفني لا يضيع ولا يموت . . وهنا لا يسعني إلا أن أمال كل فنان مؤمن بالفن ، حل يكثر إنتاجا إذا كنا بمعزل عن العمل طول النهار ، أم اذا كنا أحرارا ساعتين فقط من ساعات اليوم ، أما رأيي أنا فهو أن الانهماك في العمل الى حد المضايقة لا يضر الفكر ، وأن الحرية الزائدة تضعف الإلهام ، وأن الانسان في حاجة دائمة الى استحداث ، ولولم تكن حياته قصيرة لما رأيناه يسرع في طلبها والتلف عليها "

"إن النبوغ يرحب بالعوائق ، بل إن العوائق هي التي تخلق النبوغ ، أما المواهب فانها تملأ العالم ، والموهوبون كثيرون تعج بهم مدنيتنا الحاضرة ، ولكن ضررهم أكبر من نفعهم ، ولن يفسد العالم أو يصيبه ضرر كبير إذا ما فقد أكثر الرسامين والموسيقيين والكتاب والناقد والصحفيين ، وربما كان ذهابهم سعادة للعالم ! وكثيرا ما أفكر في حريق مكتبة الاسكندرية فأقول لنفسى : ما نفع ذلك الماضي الميت ، ولو أننا ورشناه لآرام في طريق حياتنا ، وصعب علينا إزالته "

هذا هو مجمل الرأي عند رومان رولان في مسألة الفن وحلته بالحياة وبالمجتمع ، وفيما يجب أن يضطلع به الفنانين من الواجب نحو الإنسانية ، وهو رأى أوضحه في إحدى رسائله التي كتبها في شيخوخته ، أى بعد أن يحسن الحقائق ، وتمت له التجربة : وشع من النظر في تقلبات الحياة ، وإثت لتلمح في هذه السطور ضرورة صادقة لشخصيته ذلك المفكر الكبير ، فليس ثمة ما يفعله بين رأيه وشخصيته ، لأنه اعتاد أن يتكلم من أطراء صغيره ، يرسل فكرته في غير خوف ولا ملق ولا رياء ، ويعان عن عقيدته ولا يهنيه ما يقول الناس ، فحسبه أنه يجحد الحق ويحبذ الانصاف .

وهكذا عاش رولان يجحد العمل لأنه القوة التي ترفع من شرف الإنسان وتكسب شخصيته ، ويدعو رجال الفن الى التضحية من أجل الغير لأنها ضريبة الإنسانية التي تفيض بها قلوبهم والتي يجب أن تكون مصدر ما يتكسبون من الأضواء على المجتمع وما ينتجون من الآثار للناس ، ثم هو يميل الأساس لهذا كله الحقيقة ، يبنى الحقيقة العامة الخالدة ، التي يرضيها العدل الإنساني في الأرض ويقضي بها للجميع ، وهنا مناط الرجاء بالفن ، ومجال الإنتاج للوهوبين ، فيجب أن نغذى في نفوس الناس حب الحقيقة ، وأن نشهرها الحاجة إلى الحقيقة ، وأن نعودها البحث عن الحقيقة ...

ولكن ما كنه هذه الحقيقة التي يشدها ويدعو إليها رولان ؟ ما مصدرها وما حدودها ؟ هي العدل الذي يقضي بالحق بين الجميع ، ويرفع لواء الأخوة بين سائر الناس في الأرض ، فلا يرتفع فرد على حساب غيره ، ولا تعالوامة على أشلاء أخرى ، العدل الذي لا يصدر عن قلب تحمله المغالاة على مجاوزة كل حد ، أو عن عاطفة مبهمة تقود الإنسان إلى ما لا يدرى وإنما هو العدل الذي يصدر عن العقل الواعي ، والفكر القويم ، والضمير الجريح .

فرولان لم يكن ينادى بدعوة شاعرية تتوج بها عاطفته ، ولكنه كان صاحب مذهب فكري يستمد وجوده من العقل ، وهنا مجال الفرق بينه وبين الفيلسوف الرومى (تولستوى) ووجه الشبه بينه وبين العالم الانجليزى (برتراند رسل) ، وكثيرون من المفكرين لم عقل رولان وتفكيره ، ولكن عبقرية الرجل كانت تتجلى في ضميره ، ذلك الضمير الواعي دائماً ، المتد الآفاق دائماً ، فما خذل صاحبه في موقف من المواقف ، ولا تخلف عنه في وطن من الشدة ، بل ظل يعلق به في جو الإنسانية الشاملة والأخوة الكاملة وأضعا الاعتبار السياسية والنزعات الجنسية تحت قدميه .

كان عام ١٩١٣ نذير الشر ، وطالع الشؤم ، إذ بدا لدول أوروبا المفتونة بقوتها أن ترقص على حافة الهاوية ، وأخذت كل دولة تحشد جميع ما تملك من القوة والمدة استعداداً للعركة ، فتوجس رولان الشر ، وأدرك أنها نقمة ستأتى على معالم الحضارة من القواعد ، وستزلزل كيان العالم ، وتزيد في بؤس الناس وضقتهم ، فأهاب بالضمير الإنساني أن يتنقظ ،

وأرسل التبعية إثر الصيحة محذرا القوم من سوء المغبة ووخيم العاقبة ، ولكن الجنون كان قد طغى على العقول حتى عقول أهل الفكر ورجال الأدب ، فقد اجتمع عدد كبير من الأدباء والعلماء في ألمانيا برعاية (جرهارت هاوبتمان) وأذاعوا على الملأ بيانا يتحدثون فيه الحرب ، ويفتون بمشروعيتها ، ويجعلون من حق القوى أن يتسلط على الضعيف ، وكان أن نهض في فرنسا (موريس باريس) يقود جماعة من الأدباء في دعوة أبناء وطنه إلى مثل هذا الغرض ، وهكذا أصبح الأدب الذي عهدته الناس صوت الإنسانية وهو حرب على الإنسانية ، واشتعلت الحماسة في النفوس والرهوس حتى صارت جنونا .

ولما نهضت فرنسا للحرب كان قانون التجنيد يقضى على "رومان رولان" بالعمل في صفوف المحاربين ، وأداء ما كانوا يسمونه بضرورة الوطن ، ولم يكن رولان جباناً ، ولا خائراً العزيمة ، ولكنه كان انساناً يرى القتل وسفك الدماء على أى اعتبار جريمة في شرعة الإنسانية ، فابى أن يحمل السلاح ، وترك وطنه وآثر الإقامة في سويسرا ، ومن هناك أخذ يخلق في جو المعركة ، ويفتح الصيون على مواقع الشر ، ويندد بالوحشية الانسانية المتجنية ، وقد جمع رولان هذه الصيحات في كتاب سماه "في جو المعركة" وبه ذاع صيته في العالم ، وارتفع صوته في الآفاق .

وجاءت معركة السلم بعد معركة الحرب ، وأصر الغالبون على أن يكون لهم السلطان المطلق على المنكوبين ، وأصبح الاستعمار في سياستهم شريعة واجبة فوق رولان ينافع عن حقوق الإنسانية وينادي بانصافها من أنانية الغاصبين ، حارب رولان الطغيان في كل لون من ألوانه ، وحارب الاستعمار في أى شكل من أشكاله ، ووقف في جانب الأمم المهيضة ، والشعوب المهضومة ، والأفكار الحرة التي تنشد العزة والاستقلال ، لم يمل به الهوى نحو شعبة ، ولم يتسلط عليه التعصب لوطنه ، بل كان صوته أجراً ما يكون في مهاجمة فرنسا والتشذع على سياستها الاستعمارية وفضح ألاعيب رجال السياسة فيها .

ناصر رولان الأمم المجاهدة لحياة السيادة والاستقلال ، وأرسل شواظ فكره الملهب على أواك الذين يدوسون حقوق الإنسانية في استعباد الشعوب ، ونحن أبناء الشرق ، من ادناه الى أقصاه ، نحفظ له في ذلك أطياب الذكري ، ونحمل له في طوايا نفوسنا ودا بود ، وعطفا بعطف ، دافع عن الهند في محنتها ، ونافع عن الهند الصينية من أغراض السياسة الفرنسية ووقف في جانب الصين لما اقتحمت أرضها اليابان ، واستهوتته شخصية "غاندى" فكتب عنه كتاباً يعتبر من أمتع آثاره ، فلا عجب إن أحبه الشرق وأجله ، وقد عرفه تلك الإنسانية النفاضة التي حررت عواطفه من التعصب المحقوت ، وسمت به على الارتظام في حمة الأناية المجرمة ، المفروضة .

فأى رجل كان ذلك المفكر العظيم ؟ إنه إنسان كامل ، إنه صخرة صادقة ناطقة للعبقريّة المشالية التي تعتز بشخصيتها وبفكرتها ، وتضع كرامتها فوق كل شيء .

نال رولان جائزة الأدب الكبرى من الأكاديمية عام ١٩١٣ تقديرا لفنه وأدبه وإيجازا لقوة روحه وعظمته ، ثم أبطره هذا ولا أخضع ضميره لرق الرسميات ...

ونال جائزة نوبل للسلام عام ١٩١٦ اعترافا بصدق يقينه وسمو عاطفته وبالف إنسانيته فما عناه هذا بئس ، بل أرسل إلى ناشر كتبه يخبره «التنازل عن هذه الجائزة لأعمال الخير ، وحسبه أن يفكر تفكيراً حراً .

واحتفل العالم ببلوغه الستين من عمره عام ١٩٢٦ ، وانطلقت ألسن الخطباء وأقلام الأدباء تمجّد أدبه وشخصه ، فما سره من هذا إلا أن يرى النصر للفكرة التي يمثلها ، والتي يرجو أن تكون مبدأ العالم أجمع ، ورسالة الأدب والفن .
وها هو ذا قد أغمض عينيه لإغماضة الأبد .

أغمض عينيه على أتون المعركة المستعر ، وعلى السياسة المحيونة بشريعة النار والدمار ، فإذا كان يحس إزاء هذا وهو يرسل آخر نفس بين جواخه ؟ ! يقينا أن إيمانه لم يفارقه ، وأن أنفاسه الأخيرة كانت تتردد بعقيدته الأبدية ؟ : كل شيء زائل إلا الحقيقة ، وكل مذهب باطل إلا المذهب الانسانية ...

محمد فهمي عبد اللطيف

كل طريق له نهاية ، فتسك بالصبر ولا تحزن
أن الدينار يقتل نعوسا ، أكثر مما يقتل السيف أجسادا
(ولتر سكوت)